الهَدَايَا وأثرُها السِّياسيّ في المشرقِ الإسلاميّ خلالَ العصرِ العباسيّ في الفترة (٢٣٢هـ - ٦٥٦هـ / ٨٤٧ - ١٢٥٨م)

إعـــداد

الباحثة/ إيمان فهد قبلان المقاطي

قسم الدراسات الاجتماعيّة

كليَّة الآداب - جامعة الملك فيصل

Email: ag20242@hotmail.com

DOI: 10.21608/aakj.2024.264295.1653

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٤/١/٢١م

تاريخ القبول: ٢٠٢٤/٤/٣م

مخلص:

هدف البحث إلى إبراز أهمية الهدية والتهادي في توثيق العلاقات المختلفة بين الناس على مختلف طبقاتهم، ونوضح أيضاً أهمية تقديم الهدايا في المشرق الإسلامي خلال العصر العباسي موضحةً أثرها السياسي في توثيق العلاقات بين الدولة العباسية وجيرانها، ودور الهدايا في تعيين الولاة والأمراء، وكذلك في التخفيف من الحروب وخلق التحالفات، وقد تناول هذا البحث ثلاث مباحث حيث جاء الأول بعنوان دورُ الهدايا في توثيقِ العلاقاتِ بينَ الدولةِ العباسيةِ وجيرانِها، والثاني تحدث عن دَورُ الهَدايا في تعيينِ الوُلاةِ والأُمَرَاء، ثم جاء المبحث الأخير بعنوان دورُ الهَدايا في التخفيفِ من الحروبِ وخلقِ التحالفات.

الكلمات المفتاحية: الهدايا، العصر العباسي، المشرق الإسلامي

Abstract:

The research aims to highlight the importance of gifts and gifts in strengthening the various relationships between people of different classes. We also explain the importance of giving gifts in the Islamic East during the Abbasid era, explaining their political impact in strengthening relations between the Abbasid state and its neighbors, and the role of gifts in appointing governors and princes, as well as in alleviating Wars and creating alliances. This research dealt with three sections. The first section was titled The Role of Gifts in Strengthening Relationships between the Abbasid State and its Neighbors. The second section talked about the role of gifts in appointing governors and princes. Then the final section was titled The Role of Gifts in Alleviating Wars and Creating Alliances.

المقدمة:

تحمل فترة الخلافة العباسية أهمية خاصة من حيث بناء العلاقات وتنوعها، فكان لتلك العلاقات أهميتها في عدة مجالات، كالسياسية والاقتصادية وكذلك الاجتماعيّة والثقافية، وأصبحت لتلك العلاقات تقاليد ومراسيم مهمة.

وكذلك تنوعت العلاقات بين أفراد المجتمع، واتخذت عدة أشكال في توثيق أواصر الألفة والمحبة والتعاون وتبادل المنافع، فكان للهدايا والهبات الدور الفعال في ذلك.

وفي هذا البحث نوضح أهمية تقديم الهدايا في المشرق الإسلامي خلال العصر العباسي موضحةً أثرها السياسي في توثيق العلاقات بين الدولة العباسية وجيرانها، ودور الهدايا في تعيين الولاة والأمراء، وكذلك في التخفيف من الحروب وخلق التحالفات.

ولقد اعتمد البحث منهج البحث التاريخي القائم على العرض الوصفي والتحليلي المقارن.

وقد قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث وهي:

- **المبحث الأول:** دورُ الهدايا في توثيقِ العلاقاتِ بينَ الدولةِ العباسيةِ وجيرانِها.
- **المبحثُ الثاني:** دَورُ الهَدايا في تعيينِ الوُلاةِ والأُمَرَاء.
- **المبحث الثالث:** دورُ الهَدايا في التخفيفِ من الحروبِ وخلقِ التحالفات.

المبحث الأول: دورُ الهدايا في توثيقِ العلاقاتِ بينَ الدولةِ العباسيةِ وجيرانِها:

كان للهدايا أهمية كبيرة على صعيد العلاقات السياسية والاقتصادية المتبادلة بين الخلافة العباسية والكيانات الأخرى، ولقد استعمل العرب السلم والصلح والتودد؛ وذلك من أجل توثيق العلاقات الدولية فكان في أغلب الأمر حل تلك المشكلات يتم عن طريق اللجوء إلى المهادنة[١] والصلح، وثم تَنشأ العلاقات الودية التي تمثل القواعد والمبادئ الخاصة بها، ففيها يتم إرسال السفراء[٢] والأمراء المحملين بالكثير من الهدايا القديرة والثمينة.

وعُرفت المراسلات الودية منذ عهد الرسولﷺ؛ من أجل التوسع في نشر الدين الإسلامي عندما أرسل حاطب بن أبي بلتعة الضبي[٣] إلى قيصر ملك الروم على مصر يدعوه للإسلام، وعاد إلى الرسول بجواب رسالته وأَهدى إليه أربع جوارٍ وغلامًا وبغلةً بسروجها ولجامها، وألفَ مثقال من الذهب وعشرين ثوبًا من أقباط مصر، كما أنه وهب لحاطب بن أبي بلعتة مئة دينار وخمسة أثواب[٤].

أما عن هدايا الخلفاء الراشدين، فيذكر الطبري أن أم كلثوم بنت علي بن أبي طاب زوجة الخليفة عثمان بن عفان أرسلت إلى الملكة امرأة هرقل ملك الروم هدايا كانت عبارة عن طيب وأحفاش[٥]، فكافأتها الملكة وأهدت لها عقدًا فاخرًا[٦].

ونشكك في صحة رواية الطبري؛ لأن العلاقات مع الروم في زمن الخليفة عمر بن الخطابﷺ كانت حربية، وقصر مدة خلافة عثمان بن عفانﷺ، كما أن المصادر لم تُشرْ للهدايا في زمن الخليفة علي بن أبي طالب –رضي الله عنهم جميعًا–.

وتبع الخلفاء الراشدون، ثم الأمويون، ثم العباسيون النبيﷺ في عملية المراسلات والمفاوضات الدبلوماسية، وتطور الأمر بهم في ذلك، فقد كانت هناك تقاليد ومراسيم رسمية، حيث نقلت الهدايا مع السفراء. أما عن هدايا الوفود في العصر الأموي، فقد وفد أهل الكوفة والبصرة للخليفة معاوية بن أبي سفيان لمبايعة ابنة يزيد

بالخلافة فأجاز الخليفة الوفد وأهدى أبا سمال الأسدي[٧] خمسة آلاف درهم، وثلاثة مطارف[٨]، وعشرة برود، ونعلين، وبرذون[٩] وفرسًا وغلامًا ووصيفَ خباز وجارية[١٠].

أما عن العصر العباسي وهداياه، فقد أرسل نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقلة يقول فيها (١٩٠هـ/ ٨٠٦م): "من نقفور ملك الروم سلام عليكم، أما بعد أيها الملك، فإن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك، هيّنة يسيرة أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة، كنت قد خطبتها على ابني، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته"[١١]، ثم طلب منه طيباً، وسرداقاً (خيمة)، فبعث إليه الخليفة وفدًا خاصًا يليق بالملوك يحمل الجارية، وأعطاه الخليفة ما سأل من أنواع الطيب والعطور، كما وبعث مع الوفد التمور والأخبصة[١٢]، والزبيب والترياق[١٣]، وبالمقابل استقبل نقفور هذا الوفد بالرحب والسعة، وهذا ما كان يتعامل به الأباطرة البيزنطيون مع سفراء الخلفاء العباسيين القادمة من بغداد، فهم في أعلى المراتب، كما وُجدت صيغٌ ودية وألفاظٌ حسنة أُعدت للقاء في المراسيم[١٤]، فأعطاهم وقر[١٥] دراهم إسلامية على برذون كميت[١٦] كان مبلغهُ خمسين ألف درهم، وأرسل معهم مئة ثوب ديباج (الحرير)، ومئتي ثوب بزيون[١٧]، وأربعةً من كلاب الصيد وثلاثة براذين، واثني عشر صقرًا من الصقور الصيادة[١٨].

إن تبادل الرسائل الودية والهدايا المتنوعة والثمينة، وتوثيق العلاقات وعقد الصلح وتبادل الطرف بينهما بعد التوتر الذي طغى على علاقتهما في البداية ما هو إلا دليل على رغبتهما في السلام، وفتح صفحة تاريخية من العلاقات الودية وحسن الجوار.

ومن الجدير ذكره، إنه قد يتم رفض بعض معاهدات الصلح، وذلك حين أرسل ملك الروم تيوفيل يطلب الصلح والمهادنة لمدة خمس سنوات على أن يخرج كل أسير من بلد الروم بغير فداء ولا دينار ولا درهم، وقد رفضها الخليفة المأمون (٢١٨هـ/٨٣٢م)، حيث قال للرسول: «...عُد إلى صاحبك فليس بيني وبينه إلا

السيف، يا غلام اضرب الطبل»[١٩]، وفي تلك الكلمات الحادة إذنٌ بالحرب؛ بسبب كثرة غارات الروم، ونقضهم العهود.

كانت الهدايا من أشكال الاتصال أيضًا التي يرسلها الأباطرة والخلفاء، وقد حملها السفراء والمبعوثون[٢٠].

ففي العصر العباسي الثاني حرص خلفاء الدولة العباسية على توسيع دائرة علاقتهم الخارجية مع الملوك والأمراء؛ من أجل تشكيل تحالف، وتقوية العلاقات الدبلوماسية، حيث وصول وفد من إمبراطور الروم ميخائيل ابن توفيل[٢١] إلى الخليفة العباسي المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م)، ومعه مجموعة من الأسرى كهدية للخليفة، وكانت السفارة من أجل التفاوض في تبادل الأسرى لدى الدولتين[٢٢].

وكذلك في خلافة المقتدر بالله سنة (٣٠٥هـ/٩١٧م) وصل سفراء ملك الروم (المش ابن يلطوار) بهدايا وألطافٍ التماسًا للهدنة وتبادل الأسرى[٢٣].

وفي العهد البويهي(٣٣٤-٤٤٧هـ/٩٤٦-١٠٥٥م) أثناء سيطرة البويهين على الخلافة العباسية ومؤسساتها، أصبحوا هم الجهة السياسية التي يقصدها السفراء ويتوجه إليها الوفود الخارجية من أجل تشكيل أحلاف سياسية أو عقد صلح، حيث وصول سفارتين من الدولة الفاطمية (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٦-٩٩٦م) للأمير البويهي عضد الدولة، حيث تهدف هذه السفارة إلى اتحاد عضد الدولة مع الفاطميين ضد الإمبراطورية البيزنطية، وقد أجاب عضد الدولة بحسن نية[٢٤].

وكذلك أرسلت الدولة البيزنطية سفارة إلى عضد الدولة؛ من أجل التفاوض بشأن الأسرى، فبعث عضد الدولة رسولين إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، هما: القاضي أبو بكر الباقلاني[٢٥]، والسفير ابن شهرام[٢٦]؛ من أجل التفاوض في تسليم بعض القلاع وحماية الحدود الإسلامية[٢٧].

وكذلك في العهد السلجوقي (٤٤٧-٥٥٢هـ/١٠٣٧-١٠٥٧م) كانت هناك مبادلة الوفود والسفراء، حيث أرسل الخليفة العباسي المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٤م) إلى نجم الدين إيلغازي[٢٨] هدايا وخلعًا يحملها الوفد الدبلوماسي برئاسة الأنباري[٢٩]؛ من أجل تقديم الشكر والامتنان على الجهود التي بذلها للتصدي في وجه الصليبين ومحاربتهم، وتحرير المناطق الإسلامية من قبضتهم[٣٠].

إذاً؛ فلقد تبين لنا أن السفارات والسفراء أداة للتعامل الدولي بين الأمم والشعوب، حيث إنّها من أقدم الوسائل التي استخدمها الإنسان للتواصل[٣١]، فقد تم إرسال السفراء لعدة أغراض؛ كتقديم التهاني والشكر والهدايا في المناسبات أو تبليغ التعازي، كذلك كانوا حلقة وصل لحل المنازعات والخلافات وتقوية العلاقات الدولية[٣٢].

وكان للهدايا دور فعال بإعتبارها وسيلة لتوطيد العلاقات الدولية والاجتماعية بين مختلف الشعوب، لاسيما وأن كانت تلك العلاقات مبنية على المصالح والمنافع المشتركة، فهي تزيل الضغائن التي تحملها النفوس، وتقرب القلوب، وتنشر المحبة وتسود بتبادل الهدايا الوئام والأمن والسلام.

المبحثُ الثاني: دَورُ الهَدايا في تعيينِ الوُلاةِ والأُمَرَاء:

كان للهدايا دور في تعيين بعض الولاة والأمراء أو تثبيت حكمهم على المناطق التابعة لهم، فكانوا يرسلون الهدايا الغريبة والنادرة من طرائف بلدانهم، حيث أرسل يعقوب بن الليث الصفار والي خراسان (٢٨١هـ/٨٩٤م) إلى الخليفة المعتمد على الله جملة من الهدايا[٣٣]؛ وذلك لكسب ود الخليفة وتأييده، ومن جملة الهدايا الطيب والمسك والعود الهندي[٣٤].

وأهدى والي خراسان أحمد بن إسماعيل (٣٣٠هـ/٩٤١م) إلى الخليفة المتقي بالله هدية كانت عبارة عن طيب وغلمان أتراك وخيول[٣٥].

وكذلك بعث سلطان الدولة البويهي من بلاد فارس (٤٢٢هـ/١٠٣١م) إلى الخليفة القادر بالله عشرة آلاف دينار وثلاثين ألف درهم، وصندوقين مملوءين طيبًا وغيرها... من تحف وألطاف بلاد فارس[٣٦].

وتنوعت الهدايا والهبات باختلاف المناسبات، فكان الخلفاء العباسيون يقدمون الخلع على الأمراء في بغداد لا سيّما في عيدي الفطر والأضحى، وعند حلول شهر رمضان واقتراب موسم الحج، فقد قدم الخليفة العباسي المستنصر بالله (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) على كافة الأمراء وسائر أرباب الدولة والعاملين لديه، وشملت الخلع والهدايا خلعًا كثيرًا يزيدون على ثلاثة عشر ألفًا، وكانت الهدايا عبارة عن قمصان أطلسية وأقبية وقصب حريري[٣٧].

واقتدى الأمراء بخلفائهم في تقديم الهدايا، فكانوا يخلعون على من هم أقل منهم منزلة من موظفي الدولة أو من هم في خدمتهم كالفراشين والخدم، ففي سنة(٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، خلع علاء الدين الظاهري الطبرسي[٣٨] في عيد الفطر على العاملين لديه ألف وسبعمائة خلعة، وكان كثيرًا ما يهب الخيول[٣٩]. وكذلك خلع إقبال الشرابي[٤٠] ألف وثمانمئة خلعة على الخدم والحاشية[٤١].

وفي ذات العام أرسل الخلع والهبات الدويدار الصغير[٤٢]، فكانت خمسمئة خلعة، ثم خلع أستاذ الدار يوسف بن الجوزي[٤٣] خمسين خلعة[٤٤].

وكان لبعض الأمراء والولاة مكانة ومنزلة عالية لا سيّما لمن ارتفع قدره وشاع ذكره لدى بعض الخلفاء، حيث يختص الخليفة أمراءهم بتقديم الهدايا في مناسباتهم المختلفة، فقد اختص الخليفة المستنصر بالله الأمير علاء الدين الظاهري بهدايا وهبات يوم زفاف علاء الدين، وأقطعه قوسين[٤٥]، ووهبه مائة ألف دينار، ثم ألحقه بأكابر الزعماء وأرباب العمائم[٤٦]. وفي زواج الأمير مجاهد الدين آيبك المستنصري، قُدمت إليه الهدايا من المماليك والخدم والجيوش وكافة الوعماء وأرباب الدولة، وقد اشتملت الهدايا على الطيب والأثواب والخيول[٤٧].

وكان الخلفاء يقدمون هدايا (الترقية للأمراء)، فكان يخلع على الأمراء عدة مرات من الهدايا، فتكون بمنزلة ترقية إلى منزلة أعلى، حيث قدم الخليفة المستنصر بالله سنة(٦٠٦هـ/١٢٠٩م) للأمير فخر الدين أيبك القباء والعمامة السوداء، وفي سنة (٦٢٩هـ/١٢٣١م) أنعم الخليفة على الأمير علاء الدين الظاهري فرسًا بلجام وسروجًا من ذهب[٤٨]، وكذلك خلع على الأمير سراسنقر المستنصري وشرف بولاية أعمال الجبل[٤٩]، وخلع عليه القباء وأعطى مركوب بعدة كاملة وطوق ذهب وشربوش(طربوش) مثلث الشكل[٥٠].

وتأتي الهدايا لتهدي النفوس وذلك حينما أراد السلطان السلجوقي ألب أرسلان التوجه إلى بيزنطة، عصى وتنمر الأمراء في إقليم كرمان (صاحِبُه قر أرسلان)، غير السلطان خطته وتوجه نحوه وألقى القبض عليه، وبعد محاولاته في استعطاف قلب السلطان طلب السماح منه، فاز بمطلوبه بعد أن تاب، وقبل منه السلطان السلجوقي، وقدم بعض الهدايا لبناته، وكانت تتضمن مئة ألف دينار وإقطاعات من الأراضي الزراعية وبعض الثياب[٥١]. كذلك قدمت هدايا شهر رمضان وكثرت، فنجد السلطان

ألب أرسلان يقوم بتوزيعها أولاً على الأمراء الذين يقومون بمنحها للفقراء والمساكين لا سيما لأهل ببلخ[٥٢]، فقد خصص لهم ألف دينار، توزع على أهالي مرو[٥٣]، كذلك ألف دينار ومثلها لأهالي هراة[٥٤] ونيسابور[٥٥]، كذلك كان يتصدق بعشرة آلاف ويشرف عليها بنفسه[٥٦].

ومنحت الهدايا لمن يقدم فروض الطاعة والولاء، ففي (٤٦٢هـ/١٠٦٩م) قدم رسول صاحب مكة المدعو محمد بن أبي هاشم ومعه ابنه يخبر السلطان أنه تم قطع الخطبة للفاطميين في مصر، وترك قول: «حي على خير العمل»، وإقامة الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان، فأمر السلطان بتقديم الهدايا والخلع النفيسة، وقدم له ثلاثين ألف دينارٍ، وأجرى عشرة آلاف دينار في السنة، وكذلك فعل أمير حلب لما رأى من قوة الدولة الصاعدة وانتشارها[٥٧]، وقال إذا فعل أمير المدينة مثلما فعلت فسأعطيه عشرين ألف دينار، وفي السنة خمسة آلاف دينار[٥٨].

إن في تقديم الهدايا استمالة للقلوب، وكسب ود الناس وحبهم وتأييدهم، وحصولهم على امتيازات ومكانة لدى مقدميها كالخلفاء والسلاطين.

لقد اهتم السلاطين السلاجقة كذلك بهدايا الأمراء والوزراء، فقد خصصت لهم الهدايا في مختلف المناسبات، فنجد السلطان طغرل بك يهب ويمنح عندما تزوج بابنة الخليفة القائم بأمر الله وذلك لمدة أسبوع يهدي ويخلع الخلع النفيسة، وشمل ذلك الرعية، فما منهم إلا وأفضيت عليه الخلع الرائقة[٥٩].

كما فعل السلطان ألب أرسلان حين أحظر وزيره نظام الملك، وأوصاه بعدة وصايا من أبرزها: جعل ملك شاه ولياً للعهد من بعده، وأفرد ابنه إياز بما كان لوالده في مدينة بلخ، وخصص له خمسمائة ألف دينار، كما وخصص لأخيه قاورد بك أعمال فارس وكرمان، وعين له شيئًا من المال وأحسن إليه[٦٠].

وتقرب السلطان ملك شاه من الوزراء والأمراء، فحكم برضاهم ورضوا في حكمه، وخلع الخلع النفيسة على الوزير نظام الملك[٦١]، وقال له أنت الوالد، وأقطعه إقطاعًا أكثر مما كان له، وضم مدينة طوس(مدينة نظام الملك)، ولقبه ألقابًا عدة، أهمها: أتابك، وتعني الأمير الوالد[٦٢]، ولقب سرهنك ساوتكين بلقب عماد الدولة بعد أن ولاه على بلاد فارس وكرمان، كما أنه أحسن لأمراء العرب والأكراد وأجزل إليهم العطاء والإقطاع[٦٣].

والمتضح في هذه الدراسة أن الهدايا والهبات ميزت آل سلجوق عن غيرهم؛ وذلك لكثرة عطائهم الذي شمل الأمراء والوزراء والرعية، ولأنهم بسطوا جناح العدل والرأفة، حيث تخصص للرعايا في عهد السلطان ألب أرسلان من الخراج الأصلي حصتين من كل سنة، وأصلح أحوالهم، وجعلوا لكل وظيفة من يشغلها ويتميز فيها بخبرته[٦٤]، وتميز بكثرة صدقاته على الفقراء والمحتاجين حيث كان يُطهى في مطبخه في اليوم خمسون رأساً من الغنم، وكانت مقولته التي خلدتها كتب التاريخ: «آثارنا هذه تدل على علو همتنا، ووفور نعمتنا[٦٥]».

المبحث الثالث: دورُ الهَدايا في التخفيفِ من الحروبِ وخلقِ التحالفات:

لقد استمرت العلاقات الحسنة والودية والهدايا والهبات بين الخلافة العباسية وسلاطين بني سلجوق قائمة ومستمرة لا سيّما لمن يتولى منصب الخلافة العباسية حرصًا منهم على استمرارية العلاقات الودية بين الطرفين، كما أنهم كانوا يريدون الحصول على الاعتراف الرسمي والتقليد الرسمي، وهو اعتراف أعلى سلطة في العالم الإسلامي الذي يمثلها الخلفاء العباسيون، حيث مكانتهم الدينية والروحية[٦٦].

فأرسل الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م) رسالة حملها السفير قاضي القضاة الماوردي أبو الحسن علي بن محمد الفقيه الشافعي للسلطان طغرل بك في مدينة الري[٦٧]. وفي رسالته نعته بالملك الشرعي، وبأنه ملاذ المسلمين، وركن الدولة

وغيرها... من الخلع، ثم عاد الماوردي وأخبر عن طاعة طغرل بك للخليفة وتعظيمه لأوامره، وبعث إليه عشرين ألف دينار باسم خزانته، وألفي دينار لحاشيته(٦٨).

وحين دخل طغرل بك بغداد (٤٤٧هـ/١٠٥٥م)، ذكر اسمه في الخطبة من بعد الخليفة العباسي، وكانت من مراسيم السلاجقة تقبيل الأرض بين يدي الخليفة كما فعل طغرل بك، ثم أثنى الخليفة عليه وأمره بمراعاة العباد، كما وحثه على نشر العدل بين الناس ورفع الظلم ونصرة المظلوم، وأن يتقي الله فيما ولاه، ثم خلع عليه الخلع السلطانية، ولقبه بملك المشرق والمغرب، وأعطى العهد. وفي المقابل قدم السلطان السلجوقي خمسين ألف دينار، وخمسين مملوكاً تركياً بخيولهم وأسلحتهم، وغيرها... من أفخر أنواع الثياب(٦٩).

ولقد قويت العلاقات بين الدولة العباسية والسلجوقية لا سيّما بعدما صاهر كل منهم الآخر. وكثرت في مناسبات الزواج الهدايا التي بينت لنا مظاهرة البذخ والأبهة، وقد سبق ذكرها، ثم تسلم السلطة بعد طغرل بك السلطان ألب أرسلان (٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، الذي أعاد ابنه القائم بأمر الله، ويريد بذلك توطيد العلاقات والاعتراف به، ولقد أعجب الخليفة العباسي بالسلطان ألب أرسلان ولما تميز به من الود والاحترام، فأمر الخليفة أن يخطب باسم ألب أرسلان في المساجد ويدعو له، كما ومنحه عدة ألقاب، كان أهمها: "السلطان المعظم عضد الدولة وتاج الملة أبو شجاع ألب أرسلان محمد بن داود"، فقد استقبل السلطان السلجوقي هذا الخبر المفرح والمبهج للنفس وهو في أذربيجان، فقام بإرسال هدايا تقدر بعشرة آلاف دينار ومائتي ثوب إبريسمية من أنواع عدة، وحوالة على الناظر ببغداد عشرة آلاف، وعشرة أفراس، ومثلها بغال(٧٠).

بقيت العلاقات حسنة مدة حكم السلطان السلجوقي ألب أرسلان، وكثر تبادل الوفود والهدايا لا سيّما تلك التي تقدم بمناسبة النصر والتمكين أو هدايا الانتصارات

العسكرية التي يخوضها السلطان مع الأعداء المهددين للدولة وحدودها ففي عام (٤٦٣هـ/١٠٧٠م) دارت حربٌ مع البيزنطيين العدو القديم للدولة غنم فيها غنائم جمة، وحمل للخليفة يخبره بالنصر، وأنفذ الصليب الذي كان خشبًا، وعليه فضة وإقطاع من الفيروزج وإنجيل كان معه سفط فضة إلى همذان(٧١).

وكذلك كانت هناك هدايا اعتاد سلاطين آل سلجوق على تقديمها عند تولية العهد، كما فعل ملك شاه عند وفاة أبيه السلطان ألب أرسلان(٤٦٥هـ/١٠٧٢م)، وبتوليه الحكم أظهر الاحترام والطاعة والولاء للخلافة العباسية؛ وهو بذلك يرغب في الحصول على توكيل من الخليفة العباسي، وحصل له ذلك عندما أرسل الخليفة العباسي الخلع وعهود التولية، وأمر أن يذكر اسمه ويدعو له في المنابر، كيف لا وسيرة ملك شاه العدل والإنصاف، والشجاعة، حيث كان ذا حكمة ورأي سديدين، لم يتوجه إلى إقليم إلا وفتحه، وبلغ حدود القسطنطينية وأقر عليها ألف دينار أحمر يحمل إلى خزينة الدولة من تلك الولايات، ووضع في جميع نواحي الروم التي مر بها وفتحها خمسين منبرًا إسلاميًا، ثم عاد إلى الري(٧٢).

ولاستمرارية أواصر المحبة والألفة بعث السلطان السلجوقي ملك شاه للخليفة العباسي المقتدي بالله عند توليه الخلافة العباسية أنواعًا من الهدايا ما يجل عن الوصف (٤٦٧هـ/١٠٧٤م)(٧٣).

لقد تنوعت الهدايا المتبادلة بين السلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين باختلاف المناسبة، فكانت هناك منسبات عدة، منها: تولي الخليفة العباسي الخلافة، ومناسبات الزواج، وعهود التولية، والانتصارات العسكرية، كذلك التنوع في تقديم الهدايا في المناسبات المختلفة ما هو إلا دليل على ديمومة العلاقات الحسنة بينهما.

الهوامش

(١) الهدنة: هي اتفاق بين الملكين المتكافئين، فيتعاقدان إما على حصن أو مال يعطيه الملك المعقودة له الهدنة لعاقدها، فيقال هذه هدنة أو مواعدة أو مواصفة أو سلم أو سلح ونحو ذلك، القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج١٤، ص١٨.

(٢) السفير، عُرف بقولهم: سفرت بين القوم: أي: أصلحت بينهم، وكشفت ما في قلوبهم ليتم الصلح بينهم، فالسفير: هو المصلح بين الناس، الأزهري، محمد بن أحمد الأزهري الهروي (ت٣٧٠هـ/ ٩٨١م)، تهذيب اللغة، حققه: محمد عوض، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م، ج١٢، ص٢٧٨.

(٣) حاطب بن أبي بلتعة ابن عمرو بن عمير بن سلمة بن مصعب بن سهل اللخمي، حليف بني أسد بن عبدالعزى، من الصحابة الذين شهدوا غزوة بدر في السنة(٢هـ/٦٢٤م)، ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني(ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، الإصابة في تمييز الصحابة، حققه: عادل أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، ج٢، ص٤.

(٤) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص٥–٨.

(٥) الحفش: الدرج يكون فيه البخور، ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص٢٨٧.

(٦) الطبري، تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٦٠.

(٧) أبو سمال: هو سمعان بن هبيرة بن مساحق بن بجير، كان شاعرًا وشهد القادسية، البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود(ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)، أنساب الأشراف للبلاذري حققه: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ–١٩٩٦م، ج١١، ص١٧١.

(٨) المطرف: ثوب كان يرتديه أكابر العرب منذ العصر الجاهلي، مربع له أعلام مصنوع من الخز الأسود أو غيره، وتكون حاشيته ضيقة، جمعه مطارف، إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، ج١، ص٣٠٤.

(٩) برذون: يطلق على غير العربي من فصيلة الخيل والبغال، وهو من الفصيلة الخيلية، عظيم الخلقة غليظ الأعضاء، قوي الأرجل عظيم الحوافر، يستخدم لحمل الأثقال، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١، ص٩٤، حاشية رقم٣، المعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين، ج١، ص٤٨.

(١٠) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله (ت٥٧١هـ/١١٧٦م) تاريخ دمشق، حققه: عمرو بن غرامة، دار الفكر، ١٤١٥هـ–١٩٩٥م، ج٧٢، ص٣٠٥.

(١١) الطبري، تاريخ الطبري، ج٨، ص٣٢١.

(١٢) الخبيص: المعمول من التمر والسمن، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، ص٦١٦.

(١٣) دواء شاف من السم، ما يضاد عمل السم في الجسم، عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج١، ص٢٩٢.

(١٤) فازليف، العرب والروم، ترجمهُ: محمد عبدالهادي شعيرة، راجعهُ: فؤاد حسنين علي، دار الفكر العربي، د.ت، ص١٩.

(١٥) وقر: مفرد وجمعها أوقار: الحمل الثقيل، عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج٣، ص٤٨٠.

(١٦) برذون كميت: الخيل والإبل، يكون لونها بين الأحمر والأسود، ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٨١.

(١٧) ثوب بزيون: بكسر الباء، أصلها فارسي وهي مركبة من: بز أي: الحرير، ويون أي: يشبه، والمعنى الكلي: يشبه الحرير، إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، ج١، ص٦٤.

(١٨) الطبري، تاريخ الطبري، ج٨، ص٣٢١.

(١٩) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٤، ص٣٦.

(٢٠) الرحيلي، سليمان، الدولة البيزنطية سفارات الدول العباسية والفاطمية والأموية في الأندلس، مكتبة التوبة، الرياض، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، ص٤٩.

(٢١) ميخائيل بن توفيل بن مخائيل، حَكَم المملكة لمدة أربع وعشرين سنة وقيل" ثمانٍ وعشرين سنة بقية أيام الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين، وكانت أمه تديرهُ وتدبر أموره، ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٢، ص١٢٥؛ المسعودي، أبو الحسن بن علي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)، التنبيه والإشراف، صححه: عبدالله بن إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة ، ج١، ص١٤٥.

(٢٢) الزيدي، ستار عبد حسان، وفود دار الخلافة العباسية والسلطة السلجوقية إلى بلاد الشام أبان الحروب الصليبية(٤٩٠-٥٨٩هـ)، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، ١٤٤٢هـ٢٠٢٠م، ص٣٢.

(٢٣) ابن مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج٥، ص١٠٥.

(٢٤) الزيدي، وفود دار الخلافة العباسية والسلطة السلجوقية إلى بلاد الشام أبان الحروب الصليبية (٤٩٠-٥٨٩هـ)، ص٣٥.

(٢٥) القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القسم، المعروف بالأقلاني البصري المتكلم المشهور، سكن بغداد، وصنف كثيرًا من التصانيف، وتوفي في بغداد سنة (٤٠٣هـ/١٠١٢م)، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٧٠.

(٢٦) أبو إسحاق بن شهرام، الكاتب ويعرف بابن ظلوم المغنية الشهرامية، قدم إلى حلب وقربه سيف الدولة أبو الحسن علي الحمداني لخدمته، وكان يرسله في رسائل ملك الروم، وأمه الجارية الشهرامية (ظلوم) وكانت من المحسنات في الغناء، ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العديم(ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، حققه: سهيل زكار، دار الفكر ج١٠، د.ت، ص٣٢٣.

(٢٧) الزيدي، وفود دار الخلافة والسلطة السلجوقية إلى بلاد الشام أبان الحروب الصليبية، ص٣٧.

(٢٨) إيغازي نجم الدين بن أرتق بن أكسب التركماني، صاحب ماردين، كان هو وأخوه الأمير سقمان من أمراء تاج الدولة تتش صاحب الشام، فأقطعهما القدس، وجرت لهما (سير)، ثم استولى على ماردين، وكان شجاعًا وذا رأي وهيبة وصيت حارب الفرنج، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص٤٣٥.

(٢٩) الأنباري: سديد الدولة، محمد بن عبدالكريم بن إبراهيم بن رفاعة الشيباني ابن الأنباري، كاتب سر للخلافة، أقام في كتابة الإنشاء خمسين سنة، وناب في الوزارة، ونفذ رسول إلى الشام وخراسان، وكان من نبلاء الرجال، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص٣٥٠.

(٣٠) الزيدي، وفود دار الخلافة والسلطة السلجوقية إلى بلاد الشام أبان الحروب الصليبية، ص٨٤.

(٣١) فتح الله، حسن، السفارة والسفراء في الإسلام، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مج٣٢، ع٣٧٩، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص١٢.

(٣٢) المقرمي، سفيان عثمان، السفارة العربية الإسلامية في العصر العباسي، المجلة العلمية لكلية الآداب، دار المنظومة، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، ص٢٢٦.

(٣٣) ابن مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج٥، ص٨.

(٣٤) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص٦٠.

(٣٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١١، ص٣٨.

(٣٦) الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص١٠٣.

(٣٧) طه، زينب محمد، الأثر الإعلامي للخلع والهدايا عند الخاصة في بغداد للمدة ٥٥٥-٦٥٦هـ/١١٦٠-١٢٥٨م، مجلة كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، مج٢٨، ع١، ١٤٧٣هـ-٢٠١٧م، ص١٤٤.

(٣٨) فلك الدين أبو الفوارس محمد بن علاء الدين أبو شجاع الطبرس بن عبدالله الظاهري البغدادي يعرف بابن الدويدار الأمير، لما بويع الخليفة المستنصر بالله قربه واستدعي إلى دار الوزارة

وجعله أميرًا وخلع عليه، وكان حاصله في كل سنة ثمانية آلاف دينار تخرج في الهبات والصلات، توفي(٦٥٠هـ/١٢٥٢م)، ابن الفوطي، مجمع الآداب في معجم الألقاب، ج٣، ص٢٨٠.

(٣٩) طه، الأثر الإعلامي للخلع والهدايا عند الخاصة في بغداد، ص١٤٥.

(٤٠) جمال الدولة، أمير الجيوش، إقبال شرف الدين أبو الفضائل الحبشي المستنصري الشرابي، كان في سنة(٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، مقدم جيوش العراق، وأنشأ عددًا من المدارس في غاية الحسن والروعة، وأنشأ بمكة رباطًا، وله معروف كثير، وفيه دين وخشوع، وعرف بالبذل والعطاء للصالحين والشعراء، توفي سنة(٦٥٥هـ/١٢٥٧م)، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٣٤٥، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٣٧٠.

(٤١) طه، الأثر الإعلامي للخلع والهدايا عند الخاصة في بغداد، ص١٤٥.

(٤٢) الدويدار مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير بن عبدالله المستنصري، الأمير المقدم لجيوش العراق، وأحد الأبطال المذكورين والشجعان الموصوفين وكان يقول: لو مكنني أمير المؤمنين المستعصم، لقهرت التتار، ولشغلت هولاكو بنفسه، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٣٧١.

(٤٣) ابن الجوزي: يوسف بن عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي القرشي التيمي البكري البغدادي(٥٨٠-٦٥٦هـ/١١٨٥-١٢٥٨م)، محيي الدين، أبو المحاسن، أستاذ دار الخلافة المستعصمية، وسفيرها، من أهل بغداد وهو ابن العلامة أبي الفرج (ابن الجوزي) توفي والده وهو ابن سبع عشرة سنة، فكفلته والدة الخليفة الناصر لدين الله، تفقه على نهج أبيه، تولى الحسبة ونظر في الأوقاف العامة، ومن إنشائه الرسائل الصادرة لمصر والروم والشام والجزيرة والموصل، وكان سفير الخليفة لصاحب حلب وملك الروم وسلطان السلاجقة، وأنشأ المدرسة الجوزية في دمشق، وتولى التدريس بالمستنصرية في بغداد، تم ولي (أستاذ دارية) دار الخلافة في أيام المستعصم بالله، قتل على يد التتار هو وثلاثة من أولاده يوم سقوط بغداد في يد هولاكو، الزركلي، الأعلام، ج٨، ص٢٣٦.

(٤٤) طه، الأثر الإعلامي للخلع والهدايا عند الخاصة في بغداد، ص١٤٥.

(٤٥) قوسان: كورة كبيرة ونهر عليه مدن وقرى بين النعمانية وواسط، ونهره الذي يسقي زروعه يقال له الزاب الأعلى، الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤١٣.

(٤٦) الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، ج٢، ص٥٩١.

(٤٧) طه، الأثر الإعلامي للخلع والهدايا عند الخاصة في بغداد، ص١٤٥.

(٤٨) طه، الأثر الإعلامي للخلع والهدايا عند الخاصة في بغداد، ص١٤٦.

(٤٩) أعمال الجبل: كورة بحمص، وهو اسم جامع لهذه الأعمال التي يقال لها الجبال كجبل فضة وجبل بني هلال، والعامة يسمونها العراق وينتسب إليها خلق كثير، الحموي، معجم البلدان، ج٢، ١٠٣ص.

(٥٠) الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، ج١، ص٥٧٥.

(٥١) الحسيني، صدر الدين أبو الحسن علي بن السيد الإمام أبو الفوارس، أخبار الدولة السلجوقية، اعتنى به وصححه: محمد إقبال، لاهور، ١٣٥١هـ- ١٩٣٣م، ص٤١.

(٥٢) بلخ: هي مدينة مشهورة في خراسان ومن أجل مدنها، وأكثرها خيراً ووأسعها غلة وتحمل غلتها إلى جميع خراسان وإلى خوارزم، كما أنها في الإقليم الخامس، موقعها الحالي بين إيران وأفغانستان، الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٧٩.

(٥٣) مدينة مرو: وتعرف بمرو الشاهجان وهي مدينة قديمة البناء، ومرو أشهر مدن خراسان وهي قصبتها، الإصطخري، كتاب المسالك والممالك للإصطخري، ص٢٥٨، الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١١٢.

(٥٤) مدينة هراة: مدينة عظيمة ومشهورة وهي من أمهات مدن خراسان، موقعها الحالي في افغانستان، وبها البساتين وهي غزيرة بالمياه ومحشوة بالعلماء، وهي أحد كراسي خراسان الأربعة: نيسابور وهراة وبلخ ومرو، الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٣٩٧، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧، ص٨١.

(٥٥) نيسابور: هي أعظم مدن خراسان، ونيسابور هي أبرشهر، وهي مدينة في أرض سهلة، وليس بخراسان أصح هواء ولا أكبر من نيسابور، ويرتفع منها من أصناف ثياب القطن والإبريسم ما ينقل إلى بلدان الإسلام وبعض بلاد الشرك، وأهلها أخلاط من العرب والعجم، وشربها من الأودية والعيون، الإصطخري، المسالك والممالك للإصطخري، ص٢٥٠-٢٥٣، اليعقوبي، البلدان لليعقوبي، ج١، ص٩٦.

(٥٦) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص٣٠.

(٥٧) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٣، ص٢٣٨.

(٥٨) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٢١٨.

(٥٩) البندري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٤٢.

(٦٠) البندري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٤٥.

(٦١) هو الحسن بن إسحاق بن العباس الوزير أبو علي الطوسي، كان من أبناء الدهاقين بناحية بيهق (سبزوار في إيران حاليًا)، كان فقيرًا منشغلًا بسامع الحديث، كان عالي الهمة وافر العقل، عارفًا بتدابير الأمور، محبًا للعلم والعلماء والصالحين، كانت وزارة نظام الملك لبني سلجوق أربعًا وثلاثين سنة أو أربعين سنة، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، د.ت، ج٥، ص١٣٧، وهو أول من أنشا المدارس، فبنى مدرسته في بغداد (٤٥٧هـ/١٠٦٤م) فاقتدى به الناس وبُنيت المساجد والرباط في البلاد، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص١٢٩.

(٦٢) وتسمية أتابك كانت كالوظيفة، وهي بمعنى النيابة عن السلطنة، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٢٣٧.

(٦٣) البندي، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٤٧.

(٦٤) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص٣٠.

(٦٥) البندري، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٤٥.

(٦٦) الطائي، هبات السلاطين السلاجقة الكبار وهداياهم للخلفاء العباسيين والأمراء والوزراء، ص٢٣٣.

(٦٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٤٧.

(٦٨) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٩٧.

(٦٩) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص١٤٨.

(٧٠) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٦، ص٨٧.

(٧١) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والرسل، ج١٦، ص١٢٤.

(٧٢) الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد، دولة آل سلجوق، شركة طبع الكتب العربية، مصر، ١٣١٨هـ-١٩٠٠م، ص٥٢.

(٧٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٢٥٤.